

ساكنة فرزونة حاضرة متيجة خلال العصر الوسيط "قبيلة الثعالبة أنموذجا".

The inhabitants of farzouna, the metropolis of Mitidja during the Middle Ages, the Tha'alaba tribe, are a model.

بشير مبارك¹

مخبر الدراسات التاريخية والاثريّة، المركز الجامعي عبد الله مرسلّي تيبازة، الجزائر

تاريخ الاستلام: 2024/01/10 ، تاريخ القبول: 2024/01/20، تاريخ النشر: 2024/04/03

ملخص:

تهدف الورقة البحثية إلى الحديث عن أبرز مدن متيجة، مدينة فرزونة خلال العصر الوسيط "مدينة البليدة حاليا"، مع التركيز على ساكنة المدينة وبالأخص قبيلة الثعالبة كما ورد ذلك في كتب الجغرافيا وأدب الرحلة وبقية المصادر التي طرقت تاريخ المدينة خلال فترة الدراسة .
الكلمات المفتاحية: فرزونة ؛ البليدة؛ متيجة؛ الثعالبة؛ العصر الوسيط.

Abstract:

The research paper aims to talk about the most prominent cities of Mitidja, the city of farzouna, during the medieval era, " Blida city at the present time" with a focus on the city's inhabitants, especially the Tha'aliba tribe, as mentioned in geography books, travel literature, and the rest of the sources that dealt with the history of the city during the study period.

Keywords farzouna; El Blida; Mitidja; Tha'aliba tribe; Middle Ages

تمهيد/مقدمة :

دراسات تاريخ المدن من الأبحاث المهمة التي أولّتها الجامعات الجزائرية اهتماما متزايدا لأن المدينة مثلت إرث حضاري تاريخي عريق بمختلف تطوراتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والإدارية والسياسية، وبذلك هي تُعبر عن عراقلة الدولة الجزائرية الضاربة في أعماق التاريخ فحضور المدن الجزائرية بالشكل السابق رد صريح على تلك

¹ بشير مبارك

الادعاءات القائلة أن الجزائر لم يسبق لها وأن كانت دولة قبل مجيء الغزاة الفرنسيين الذين طمسوا معالم وعراقه الكثير من مدننا.

ما يجب الإشارة إليه في تاريخ الجزائر المستقلة إهمال شريحة كبيرة من المؤرخين الجزائريين ميدان البحث هذا- تاريخ المدن- إذ لم تحض كثير منها بما يستحق من الدراسة والبحث، فجل الباحثين جندوا أقلامهم للكتابة عن تاريخ بعض المدن الجزائرية في صورة مدينة تلمسان، الجزائر، قسنطينة، ندرومة، المدية، تهرت، توات، ورجلان...، وحتى مدينة البليدة التي تبقى تحتاج إلى دراسات عميقة مركزة علّما تساهم في إخراج جانب من تاريخها وحضارتها .

اعتبارا لذلك جاءت ورقتي البحثية الموسومة بـ : " ساكنة فرزونة حاضرة متيجة خلال العصر الوسيط قبيلة الثعالبة أنموذجا " .

إن الورقة البحثية هذه تحاول معالجة جانب مهم من تاريخ المدينة الاجتماعي ذلك المتعلق بساكنتها- قبيلة الثعالبة- دورها وأثرها في الإقليم وما جاوره من مناطق .

تطرح الورقة البحثية إشكالية رئيسة تدور حول حياة الثعالبة بفرزونة حاضرة متيجة. وتتفرع عنها مجموعة من التساؤلات الفرعية أبرزها:

- كيف وصفت كتب الجغرافيا والرحلات فرزونة وإقليم متيجة ؟

-كيف وصل الثعالبة إلى متيجة ؟

-ما الدور المسجل لقبيلة الثعالبة في حواضر متيجة (فرزونة) ؟

للإجابة عن إشكاليات الورقة البحثية وتساؤلاتها سيتوجب علينا الرجوع إلى مختلف المصادر والمراجع التي كتبت عن الموضوع أو طرقته في أحد جوانبه معتمدين في ذلك على منهج تاريخي خاص يعتمد على الوصف والتحليل والاستنتاج.

1- حواضر متيجة خلال العصر الوسيط : "من فرزونة إلى البليدة":

إنّ الواجب يملي علينا كباحثين جزائريين التعريف بترائنا الثقافي الإسلامي، خاصة وأن كتابات المستشرقين وبالخصوص الكتابات الفرنسية حول المدن الجزائرية قد وجّهت اهتمامها حول الفترة الرومانية، والفترة الاستعمارية، ولم تعط للفترة الإسلامية حقّها من الدراسة، حتّى يثبتوا من خلال كتاباتهم أن أغلب المدن الجزائرية أسّسها أسلافهم ولم يلعب أسلافنا دورا في ذلك، والحقيقة أن هذه المدن قامت بسواعد رجال هذا البلد وممتلكاته فيما مضى من العصور .

ذلك ما يبدو من خلال بعض الكتابات الفرنسية التي كتبت عن المدن الجزائرية، مثل ما كتبه (جورج ووليام مارسي/George et William Marçais) اللذان اهتمتا بدراسة آثار تلمسان الإسلامية لكنهما لم يتعمقا جيدا في تاريخ المدينة، وكذلك (أرنيست مارسي/Arnest Mercier) الذي كتب عن قسنطينة عبر العصور وركّز على العهد الروماني والعهد الفرنسي، و(روني ليسيس/René Leseppse) الذي اهتم بدراسة تاريخ وهران على العهد الاستعماري ومرّ مرور الكرام على الفترة الإسلامية للمدينة (يعي بوعزيز، 2007، ص 7-8) .

وإذا كان أسلافنا قد وضعوا أسس الحضارة العربية الإسلامية لبلادنا، فنحن مطالبون اليوم بالمحافظة على هذا الرصيد الحضاري وإثرائه وجعله منطلقا نحو ترسيخ هويتنا وشخصيتنا العربية الإسلامية، وهذا لا يتسنى إلاّ بإثبات الدور الذي لعبته الجزائر بإسهاماتها في الحضارة العربية الإسلامية، فرغم ضخامة موروثنا الحضاري والثقافي

والفكري، إلا أنه يبقى مجهولا لدينا لا نعرف عنه إلا الشيء القليل، كما يبقى مجهولا لدى العالم الخارجي، وهذا له ما يفسره، حيث بليت بلادنا طوال مراحل تاريخها بمحن الغزو الأجنبي آخره المحتل الفرنسي الذي دمّر وحطّم ومحا مجموعة كبيرة من الآثار الإسلامية، لغاية وحيدة هي فصل الجزائر عن تاريخها وماضيها ومجدها الإسلامي.

لذا يتوجب علينا كجزائريين باحثين ومختصين في التاريخ إزالة الغبار على تراثنا والانكباب على بعثه بهدف إحياء ما اندثر من تراث ليكون قاعدة متينة تبنى عليها انطلاقنا الحضارية التي نسعى إليها .

إن هذا العمل يعتبر محاولة مني لإعادة إحياء جانب من تاريخ المدينة الاجتماعي المتعلق بساكنتها خلال العصر الوسيط من خلال الرجوع إلى كتب أدب الرحلة، وكتب الجغرافيا، ومصادر التاريخ العام، وكتب التراجم، هذه الكتب تعد من أهم المصادر التي زوّدت الباحثين بمعلومات قيّمة حول تاريخ مدن المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، ورغم ندرة ما ورد فيها من مادة علمية إلا أنها تبقى قيّمة في ظل افتقادها في بقية كتب التاريخ العام خاصة وأن هؤلاء – الرحالة والجغرافيين- قد كتبوا وصوروا كل ما وقع تحت أعينهم خلال زيارتهم لمختلف مدن البلاد وفي شتى المجالات السياسية، والجغرافية، والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية ولعل من أبرز مدن المغرب الأوسط التي أخذت حظها من تلك الزيارات والكتابات مدينة فرزونة " البليدة" ..

أ- متيجة وحاضرتها فرزونة في كتب أدب الرحلة:

فحص متيجة خلال العصر الوسيط من أبرز أقاليم المغرب الأوسط حضورا في شتى المجالات السياسية، والفكرية، والاقتصادية والاجتماعية يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب حوالي 100 كلم انطلاقا من بودواو وصولا إلى شلف، ويمتد عمقه من الشمال إلى الجنوب على مسافة 15 كلم، أهم حواضره جزائر بني مزغنة والبليدة (فرزونة)، مليانة، وشلف وبالتالي هو عبارة عن فحص كبير خصب كثير القرى (طيب بوسعد، 2015، ص 20)، في حين أشار الباحث نور الدين غرداوي أنه يمتد على مسافة 120 كلم من الغرب إلى الشرق و 50 كلم من الشمال إلى الجنوب (نور الدين غرداوي، 2015، ص 103) .

ذكرت كتب الجغرافيا وكتب أدب الرحلة متيجة كثيرا يأتي في مقدمة هؤلاء ابن حوقل في كتاب صورة الأرض، والبكري في كتاب المسالك والممالك، وياقوت الحموي في معجم البلدان، وليون الإفريقي في وصف افريقيا وغيرهم كثير.

أما ابن حوقل فقد تحدث عن الإقليم حين ذكر مدن إفريقية فقال: "...وأما إفريقية فقصبها القيروان ومن مدنها صبرة، أسفاقس، المهديّة...المسيلة، أشير، سوق حمزة، متيجة، تنس..." (ابن حوقل، دت، ص 216-217)، ليعرج بعدها في وصف ما يحتويه الإقليم من أنهار وبساتين التي يكثر إنتاج القمح فيها عند قوله: "متيجة في مرج لهم جاري عليه أرحية وشعبة من النهر تدخل الدور كثيرة البساتين وهياجة على اسم رستا قها وهو واسع كثيرة القموح" (ابن حوقل، دت، ص 228) .

وأما البكري فيعتبر من الرحالة القلائل الذي ربط اسم متيجة بمدينة فرزونة التي تعتبر من أهم حواضره خلال العصر الوسيط بالقرب منها أسست مدينة البليدة خلال القرن العاشر الهجري (16م)، يقول البكري: "المدينة وهي بلد جليل قديم ومنها إلى فرزونة وهي على مدينة على نهر كبير عليه الأرحا والبساتين ويقال لها متيجة..." (البكري أبو عبيد، دت، ص 65-66) .

ما ذكره البكري عن مدينة فرزونة ومتيجة أكد عليه ياقوت الحموي في معجم البلدان حيث ذكر أن خزرونة تقع على ضفاف النهر الكبير تحيط بها الأرحاء والبساتين يقال لها متيجة كثيرة المزارع والمسارح يقول ياقوت الحموي: "... ومنها إلى فرزونة، وهي مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين ويقال إنها متيجة ولها مزارع ومسارح وهي أكثر تلك البلاد كتانا ومنها يحمل وفيها عيون سائحة وطواحين ومنها إلى مدينة..." (ياقوت الحموي، 1977، ص53).

من خلال النصين السابقين يمكننا القول أن فرزونة من أبرز مدن متيجة خلال العصر الوسيط، هذه المدينة اشتهرت بالمزارع والمسارح يكثر إنتاج الكتان بها، تتوفر على عيون وطواحين (البكري أبو عبيد، د ت، ص65-66)

أما بقية نصوص كتب أدب الرحلة والجغرافيا فوجدناها تستفيض في الحديث عن متيجة دون الإشارة إلى مدينة فرزونة التي بنيت بالقرب منها مدينة البليدة الحالية لذلك فضلنا عدم ذكر تلك النصوص واقتصر تركيزنا فقط على النصوص التي ذكرت فرزونة ضمن متيجة .

ب - البليدة حاضرة متيجة بداية من القرن 16م:

تتفق كثير من الدراسات الحديثة أن فرزونة التي ذكرها الرحالة والجغرافيون هي نفسها المنطقة التي أقيمت عليها مدينة البليدة يتقدم هؤلاء المؤرخ صالح بن قرية حين أشار إلى أن فرزونة هي مدينة قريبة من البليدة الحالية (صالح بن قرية، 2007، ص255) والباحث جلال أمباركي الذي قال أن فرزونة هي المنطقة التي قامت عليها مدينة البليدة (جلال امباركي، 2015، ص 157) ، والباحث بن عتو حمدان الذي أشار إلى أن من أقدم مدن متيجة مدينة فرزونة ويعتقد أنها مدينة البليدة (بن عتو حمدون، 2017، ص 439).

إذن من خلال الدراسات السابقة يظهر أن مدينة البليدة قامت على نفس المنطقة التي قامت عليها مدينة فرزونة خلال العصر الوسيط، فمدينة البليدة اسم حديث لم يكن معروفا خلال العصر الوسيط بهذا الاسم، وإنما أسست خلال العهد التركي العثماني كما سنوضح ذلك لاحقا.

تشير النصوص أن مدينة البليدة أقيمت بدعم من المهاجرين الأندلسيين مع بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر للميلاد (10هـ)، برئاسة سيد أحمد الكبير يقول أحمد توفيق المدني: "بليدة من أهم وأجمل مدن الناحية الجزائرية عند سفح الأطلس التلي وإلى جانب الوادي الكبير الذي يسقي بمياهه الدافقة البساتين البديعة... والبليدة مدينة أندلسية أسسها سنة (961هـ/ 1553م) سيدي أحمد الكبير بإعانة مهاجري الأندلس واتخذوها لأنفسهم دارا وملاذا وجعلوها مركزا لصناعتهم وغرسوا بها حسب النظام الأندلسي البساتين، حطم زلزال سنة (1240هـ/ 1825م) هذه المدينة النظرة فأعاد أهلها بنائها بإعانة أتراك الجزائر" (توفيق المدني، 1931، ص198-199).

يضيف الباحث مراد لقبال عن تأسيس المدينة قائلا: "مدينة البليدة أسست على يد سيدي أحمد الكبير عام 1535م بمحاذاة مدينة فرزونة القديمة (المقصود فرزونة كما وردت في كتب الرحلة) بعد أن أقطع خير الدين بربروس أراضيها للأندلسيين، وذلك بعد قدوم سيدي أحمد الكبير من الأندلس سنة (925هـ/ 1519م)، فاختار موضعاً لإقامته قرب وادي الرومان ولما نزل مهاجرو الأندلس بالمناطق المحاذية لجبل شنوة بولاية تيبازة اضطروا لمغادرتها صوب البليدة الحالية تجنبا للصراع مع القبائل التي قطنت المنطقة فأقاموا تحت حماية سيدي أحمد

الكبير والباشا خير الدين بربروس الذي أقطعهم أرضا أسس عليها سيدي الكبير مسجدا وحماما وفرنا ثم تبعه البقية في بناء منازل ذات طابع أندلسي(مراد لقبال، 2004-2005، ص-ص 19-25).

لقد تم اختيار موقع المدينة بعناية فائقة تحكمت فيه عدة عوامل منها: خصوبة تربة سهل متيجة الشرقي الذي يوفر القوات الذي يضمن لهم العيش ، إضافة إلى وقوعها ضمن سفوح الأطلس البليدي ما يوفر أحد ركائز التجمعات البشرية المتمثل في الماء أساس مختلف الأنشطة خاصة الزراعة (محمد علوات، د ت، ص 398).

عموما البلدية اسم عربي و تصغير لكلمة بلد أو بلدة وتعني المدينة الصغيرة أو القرية الكبيرة، اتخذت عدة أسماء منها الوريدية، البلدية، المدينة الواحة، مدينة البساتين الإفريقية، زهرة الساحل، مدينة الورد(مراد لقبال، 2004-2005، ص 21).

تقع المدينة ضمن حاضرة الجزائر التي تضم أربع ولايات هي: الجزائر، البلدية، تيبازة، بومرداس، هذا المجال يمتد من جهة الساحل شمالا نحو سفوح الأطلس البليدي جنوبا مرورا بسهل المتيجة الذي يمثل النسبة الأكبر من مجال الحاضرة الذي تحده الكتلة الجبلية الأطلس البليدي من الجنوب الذي يمتد نحو جبل زكار من الجنوب الغربي في حين نجد من الشرق الكتلة القبائلية (جبل بوزقزة) ومن الغرب جبل شنوة(محمد علوات، د ت، ص 395) تربع البلدية على 27 بالمائة من مساحة الحاضرة في حدود 1482.8 كلم مربع(محمد علوات، د ت، ص 396).

أعجب الرحالة الفرنسي(Doudih) دوديه بالمدينة بحيث تأثر بمنظرها الخلابة خاصة شلالات الشفة يقول: كان المنظر جد رائع على يمينك جبال شاهقة وصخور كبيرة كأنها كاندراية" ثم يذكر صورة عن مدينة البلدية " أتذكر موقعا لبستان برتقال عند مدخل البلدية حيث الأوراق الداكنة الملساء والمبرنقة، والفاكهة ذات اللون الزجاجي تداعب النسيم العليل والأزهار النيرة المحيطة بالمكان"(بغداد عبد الرحمن، 2021، ص 157-158).

2- قبيلة الثعالبة أبرز ساكنة فرزونة (البلدية) خلال العصر الوسيط :

تعتبر قبيلة الثعالبة من أبرز ساكنة مدينة فرزونة خلال العصر الوسيط، استقرت بضواحي البلدية الحالية(مراد لقبال، 2004-2005، ص 101). وضمها أبرز بطونها قبيلة الحجوط : "...من قبائل الثعالبة الموجودة اليوم في وطن الثعالبة متيجة هي قبيلة الحجوط التي كانت تسيطر على واد الشفة وواد مزفران شرقا إلى وادي جر وشنوة غربا(بن عتو حمدون، 2017، ص -ص 82-84).

عموما استقر بمدينة فرزونة و متيجة الطبقة الرابعة من العرب وهم العرب المستعجمة وقائلهم حكيم وهلال والمعقل، هذه الأخيرة استقرت أحد قبائلها بمتيجة وفروعها ثلاث مختار وعثمان وحسان، تشتمل مختار على روحة وسليم وعثمان وكنانة، أما حسان فعلى ذوي حسان وذوي عبيد الله، وذوي حسان على دليم والأوداية والرايش والرحامنة وأحمر، ويشتمل ذوو منصور على العمارنة والمنابهة وأولاد حسين وأولاد أبي الحسين، وينقسم بنو عبد الله بدورهم إلى: خراج وحج و ثعلبة وجعوان تتفرع كل هذه القبائل إلى بطون عديدة "(الحسن الوزان، 1983، ج 01، ص 49) يقول ابن خلدون: " هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الإسلامية العربية ... وأكلتهم الأقطار المتباعدة"(ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج 06، ص 05).

زحف الثعالبة كجماعات بشرية وردت من المشرق مع الهلاليين والسليبيين تدريجيا إلى المغرب الأوسط واستقروا بمنطقة التيطري التي تركتها الجماعات الصنهاجية منذ زمن بعيد، بعدما أسست كيانات سياسية في صيرة المنصورية وقلعة بني حماد وغرناطة، لقد تمكن الثعالبة المدعين الانتساب لنفس الجد (ثعلب بن علي بن بكر الصغير) من الاستحواذ على سهول متيجة والوصول إلى مدينة الجزائر والتمكن من إدارتها في نهاية الفترة الوسيطة..."(علاوة عمارة، د ت، ص 36-37).

ويعتبر الثعلبية من أبرز القبائل العربية التي استقرت بمتيجة وضمها مدينة فرزونة خلال العصر الوسيط وهي ذات شرف وشجاعة بلغ عدد فرسانها ثلاثة ألف فارس (الحسن الوزان، 1983، ج01، ص 56)، لها عدة فروع مثل: ثعلبية في بني أسد، وثلعبية في بني تميم، وثلعبية في طيئ، وثلعبية في بني ربيعة (ابن منظور، د ت، م 01، 238)، يقول صاحب تاج العروس: "بهاء العصعص بالضم والثلعبية اسم خلق لا يحصون عدا من العلماء والمحدثين قال السهيلي في الروض: ثعلبية في العرب في الرجال قلما سموا بثعلب وإن كان القياس كما سمو بنمر وذئب وسبع . لكن الثعلب مشترك إذ يقال: ثعلب الرمح وثلعب الحوض، وبنو ثعلبية قبائل شتى خير مبتدأ أو معطوف على خلق ويقال لهم الثعالب فثعلبية في أسد وثلعبية في تميم وثلعبية في ربيعة وثلعبية في قيس ومنها الثعلبان: قبيلتان من طيئ وهنا ثعلبية بن جدعاء بن ذهل ابن رومان بن جندب بن خارجة ابن سعد بن فطرة بن طيئ وثلعبية بن رومان بن جندب المذكور، والثعالب في طيئ يقال لهم مصابيح الظلام... وأما القبائل ففيهم ثعلبية بكر بن ريث بن غطفان وفيهم بغيره ثعلب بن عنزوا، وثلعبية اثنان وعشرون صحابيا منهم ثعلبة بن سهيل الطهوي أبو مالك الكوفي سكن الري، وثلعبية بن مسلم الخثعمي الشامي، وثلعبية الأنصاري والأشجعي والثقفي صحابيون" (الحسين الزبيدي، 1987، ص-ص 91-93).

أما الثعلبية اللذين استقروا بمتيجة وتنقلوا في الصحراء حتى تكديت، وهنا لا ندري ما المقصود بها، هل يقصد توات البعيدة عن الجزائر، أو تكدمت القريبة من تاهرت، سيطروا على الجزائر ودلس (الحسن الوزان، 1983، ج01، ص 56)، يرجعهم ابن خلدون إلى عرب المعقل جدهم الذي له من الأولاد سحير أو (صقيل) ومحمد ومن سحير عبيد الله وثلعب فيقول: "أن معقل جدهم له من الولد سحير ومحمد، فولد سحير عبيد الله وثلعب، فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم ومن ثعلب الثعلبية اللذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر وولد محمد مختار ومنصور وجلال وسالم..." (السلوي أبو العباس، 1954، ص 161).

يرجع نسب ولد ثعلب بن علي بن بكر بن سحير أخي عبيد الله بن صقيل" (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج06، ص 84). ويذكر ابن خلدون انتسابهم إلى جعفر بن أبي طالب، ويؤيد هذا الرأي مبارك الميلي حيث يقول: "...نسب جعفر في الثعلبية صحيح وأن جعفر أخو عبد الله الكامل الذي ملك أبناؤه متيجة خلال القرن (03هـ/09 م) فلا يستبعد أنهم بقوا هناك بعد ذهاب ملكهم حتى نزل عليهم الثعلبية" (مبارك الميلي، 1963، ج02، ص 159). وتذكر لنا نصوص التاريخ أن موطنهم كان بتيطري ثم نزلوا إلى متيجة بعدما تغلب عليهم بني توجين" (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج06، ص 84).

إن النصوص التاريخية لا تمدنا بمعلومات عن تاريخ دخول الثعلبية إلى متيجة، لكن في المقابل تذكر بعض الدراسات الحديثة أنهم دخلوها أواخر القرن (07هـ / 13 م)، حيث كانوا عاجزين عن الترحال فاستقروا بمتيجة وأدوا الضرائب للحفصيين والمرينيين اللذين تداولوا ملك متيجة (مبارك الميلي، 1963، ج02، ص 159).

لقد دخل الثعلبية إقليم متيجة وهم تحت سلطة مليكش أو ملكيش من صنهاجة، إلى غاية أن تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط وقضوا على مليكش، فتغلب الثعلبية على متيجة وملكوه (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج06، ص 84).

كانت رئاستهم في الإقليم في ولد سباع بن ثعلب بن علي بن مكر بن صغير، وتذكر النصوص عن سباع هذا أنه إذا ما وفد على الموحدية استقبلوه بحفاوة وكرمواه إذ يجعلون من فوق عمامته دينارا يزن عددا من الدينارين وذلك أنه أكرم وفادة المهدي بن تومرت لما مر بهم" (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج06، ص 84).

تزدونا بعض النصوص بأن سباع هذا منح ابن تومرت حمارا " ولما اجتاز المهدي في طريقه إلى المغرب بالثعلبية عرب الجزائر كان ساعيا على رجله فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه اركبوا الحمارة يركبكم الخيول

المسمومة" (السللاوي أبو العباس، 1954، ص90)، وبعد ذلك استقرت رئاستهم في بني يعقوب بن سباع، ثم في عقب حنيش، ولما غلب السلطان المريني أبو الحسن على ممالك الزيانيين نقلهم إلى المغرب وصارت الرئاسة لأبي الحملات بن عائد بن ثابت وهو ابن عم حنيش، ثم ولي عليهم إبراهيم بن نصر وبعد أن هلك قام برئاستهم ابنه سالم ابن إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن محمد بن سباع كبير الثعالبة وصاحب وطن متيجة، هكذا ذكره ابن خلدون، عاقد سالم هذا الزيانيين كثيرا- أبو حمو- ثم نقض عهده معهم مرارا، ولما تغلب بنو مرين على تلمسان تحيز لهم، ولما استرجع أبو حمو ملكه استدعى سالم أبا زيان محمد بن عثمان الثاني ابن عم أبي حمو ونصبه على الجزائر (مبارك الميلي، 1963، ج02، ص296) فزحف إليه أبو حمو سنة (779هـ / 1377م) وحاصره بجبال متيجة أياما فاعتقله وأخذه إلى تلمسان فقتله رميا- قعصا- بالرماح، ثم تتبع أهله وعشيرته بالقتل والسبي والنهب إلى أن قضوا على بكرة أبيهم" (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج06، ص84-85).

برز من الثعالبة دفين جزائر بني مزغنة عبد الرحمان الثعالبي (786-875هـ / 1334 - 1470م) ارتبطت هذه الشخصية بالتصوف، وأسست بالمدينة مدرسة تحمل اسمه (يحيى بوعزيز، 2004، ص218)، إضافة إلى أبو مهدي عيسى عالم القرن (11هـ / 17م) وعبد الرحمن من فرع محمد بن سباع الذي يرفع البعض نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه (مبارك الميلي، 1963، ج02، ص297).

3- طبيعة حياة الثعالبة بفرزونة متيجة:

أما عن طبيعة حياتهم بالإقليم يجعلنا نتساءل هل حافظ هؤلاء على عاداتهم المشرقية التي ذكرتها مصادر التاريخ. أم تأثروا بحياة البربر لما اختلطوا بهم؟

لتحديد ذلك سننعمد على نصين النص الأول للحسن الوزان والنص الثاني لابن خلدون، فالحسن الوزان في وصف إفريقيا نجده يقرر أن حياة العرب تختلف من منطقة لأخرى فيذكر طبيعة حياة العرب بليبيا فيقول: "...فعراب ليبيا ونوميديا يعيشون عيشة بؤس وفقير مدقع، يتاجرون بالجمال بالسودان ويملكون كمية وافرة من الخيول ويخرجون لصيد الغزال وحمار الوحش والتعام شبه لباسهم لباس النوميديين..." (الحسن الوزان، 1983، ج01، ص61-62)، أما في حديثه عن الصنف الآخر من العرب وهم القاطنون ما بين الأطلس والبحر المتوسط، وهي المنطقة التي تدخل ضمنها مدينة فرزونة فيقول عنهم: "... إنهم أكثر هناء وغنى من العرب المذكورين أنفا لا سيما فيما يخص اللباس وأسراج الخيول وجمال الخيام، يملكون خيولا أحسن من خيول الصحراء بكثير إلا أنها أقل سرعة في السباق، فيحترث هؤلاء العرب أرضهم فيحصلون منها على كميات وافرة من الحبوب ويكسبون عدد لا يحصى من الغنم والبقر الأمر الذي جعلهم لا يستقرون في مكان واحد بحثا عن أماكن الرعي، وهم أكثر وحشية وخيانة من عرب الصحراء، إلا أنهم كرماء" (الحسن الوزان، 1983، ج01، ص56)، هذه هي عموما طبيعة حياة عرب إقليم متيجة حسب ليون الإفريقي،

أما ابن خلدون في أحد مواطن كتابه العبر نجده يصور حياتهم حيث يذكر أنهم ركبوا الخيل وحملوا السلاح وفلحوا الأرض" (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج06، ص07). كما أغاروا على الضواحي وأفسدوا السابلة وأغاروا على الحجاج أيام الحج" (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج06، ص18)، وفي هذا السياق أشارت بعض الدراسات الحديثة إلى طبيعة حياة قبائل بني هلال بالمغرب الأوسط التي لا تختلف عن حياة القبيلة العربية بالمشرق، حيث حافظوا على نفس نمط عيشهم المعتاد حياة البدو والظعن، أما في قضية اللسان فإن القبائل التي استقرت بمتيجة ذات اللسان المضري لسان الهلاليين قد فسد لما اختلطوا بالبربر، وفيما يخص أخلاقهم فبقت تقريبا نفسها بقبحها خاصة أعمالهم التخريبية مباشرة بعد دخولهم إلى المغرب الأوسط، وحسنها كالشجاعة وعزة النفس وحفظ العهد وحسن الجوار والاعتراف بالجميل، وعنايتهم بالأنساب (مبارك الميلي، 1963، ج02، ص154-157).

عموما يمكننا تلخيص طبيعة حياة الثعالبة بفرزونة متيجة بما أورده أحمد توفيق المدني في كتابه الجزائر حيث يقول: "العرب مخالطون ولا يختلطون، فالعربي صعب الاندماج في غيره شديد المحافظة وقوي الغيرة على عروبتة"(توفيق المدني، 1931، ص140)، فالعرب اللّذين سكنوا بالجزائر تقريبا حافظوا على نفس عيشة أسلافهم بالمشرق، إذ ما استثنينا فساد لسانهم المضري، تخلقوا بعين أخلاق أسلافهم، وبعبارة أخرى حافظوا على كل الجزئيات والكليات التي كانت لبني هلال فالصبي العربي مثل الصبي العربي النازح مع أهله من الحجاز نحو مصر، والراعي العربي يمثل لك الراعي الهلالي، والسيد العربي بالمشرق هو نفس السيد العربي بالجزائر"(توفيق المدني، 1931، ص141).

أما عن علاقاتهم بالسلطة السياسية فلم تكن واضحة، فتميزت بالصراع تارة وبالتحالف تارة أخرى، فلم يعترف أي طرف باستقلال الطرف الآخر، فكانت علاقة ملوك هذه الدول مع العرب تتسم بتفريغهم أيام الحرب فيقطعونهم الأراضي ويمنحونهم الهدايا ويقربوهم بالمصاهرة، أما أيام السلم فقلبوا لهم ظهورهم وجردوهم من امتيازاتهم(مبارك الميلي، 1963، ج02، ص283) وهذا ما رأيناه سابقا في علاقة الثعالبة برئاسة سالم ابن إبراهيم مع السلطة الزيانية أيام أبو حمو موسى الزياني .

لكن يبدو أن علاقة الثعالبة مع الموحدين كانت جد متميزة حسب ما ذكرناه سابقا من كلام ابن خلدون عن سباع زعيم الثعالبة عند نزوله عليهم كانوا يستقبلونه بحفاوة ويكرمونه إذ جعلوا من فوق عمامته دينارا يزن عددا من الدنانير وذلك أنه أكرم وفادة المهدي بن تومرت لما مرّ بهم، وأفادتنا بعض الدراسات أنّ عبد الله بن عبد المؤمن بن علي كان بمتيجة عائدا إلى مراكش فوصلته أخبار مفادها أن بني هلال خرجوا لحرب قواته بباجة التونسية فتوقف عن السير وأرسل جيشا مكونا من ثلاثين ألف فارس مددا لابنه(عبد الحميد حاجيات، 2007، ص170) وهنا لا يستبعد مشاركة عرب متيجة في هذه الحملة باعتبار العرب من مكونات الجيش الموحيدي(مصطفى أبو ضيف، 1992، ص 302-303) ، أما عن دولة المرابطين فلم نعثر على نصوص توضح علاقة عرب متيجة بهم .

خاتمة:

- خلصت الورقة البحثية إلى جملة من النتائج نلخصها فيما يلي:
- تمثل فرزونة أبرز مدن متيجة خلال العصر الوسيط .
 - أسست مدينة البليدة على نفس المنطقة التي قامت عليها مدينتي فرزونة .
 - أثرت هجرات الأندلسيين في قيام مدينة البليدة .
 - تمثل قبيلة الثعالبة من أبرز القبائل التي استقرت بمتيجة عامة و فرزونة خاصة .
 - إنّ التشكيل القبلي لعرب متيجة لم يخرج عن تشكيلهم بكامل المغرب الإسلامي، فقد أخذ نفس سمات التشكيل القبلي المشرقي.
 - أثرت قبيلة الثعالبة تأثيرا إيجابيا على فرزونة و متيجة إذ ساهمت في بعث النشاط الاقتصادي حيث اهتمت بالنشاط الزراعي وتربية الحيوانات خاصة الخيول
 - كان لثعالبة متيجة أثر من ناحية تعريب اللسان حيث نجحت هذه القبائل في نشر اللّغة العربية لاتفاق أساليب حياتهم وتجانسها مع الحياة البربرية في السهول والجبال .

قائمة المصادر والمراجع:

- 01- ابن حوقل أبي قاسم النصيبي، كتاب صورة الأرض " المسالك والممالك والمفاوز والممالك "، جزء المغرب والأندلس، منشورات دارمكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دون تاريخ.
- 02- ابن خلدون عبد الرحمن (732- 808هـ / 1332- 1406م)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة ومراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م، ج 06.
- 03- ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري الإمام العلامة ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، دون تاريخ، المجلد 01..
- 04- أحمد عمر مصطفى أبو ضيف ، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م.
- 05- أمباركي جلال ، " الجغرافية البشرية لمنطقة متيجة من خلال الرحالة والجغرافيين من القرن الأول إلى القرن العاشر الهجري/ السابع إلزى السادس عشر ميلادي"، مجلة متيجة للدراسات الإنسانية، العدد 04، ديسمبر 2015م.
- 06- البكري أبي عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ.
- 07- بن قربة صالح وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007 م.
- 08- بوسعد طيب، متيجة من خلال المصادر الجغرافية الإسلامية في العصور الوسطى، مجلة متيجة للدراسات الإنسانية، العدد 04، ديسمبر 2015م.
- 09- بوعزيز يحيى ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ط02، دون تاريخ، ج 01.
- 10- // //، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004م، ج 01.
- 11 - // //، وهران، صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2007م.
- 12- حاجيات عبد الحميد وآخرون، كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2007م.
- 13- الحسن الوزان بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 02، 1983م، ج 01.
- 14- الحسين الزبيدي السيد محمد مرتضي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي هلاي ومراجعة عبد الله العلابي وعبد الستار محمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط 02، 1987م، ج 02.
- 15- حمدون بن عتو، الثعالبية في الجزائر من خلال المصادر المحلية ، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 15، 16، مارس 2017م.

- 16-السلواي الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية، تحقيق وتعليق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1954م، ج02.
- 17- ضيف شوقي وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 2004م.
- 18-عبد الرحمن بغداد ، الجزائر في أدبيات الرحالة الفرنسي ألفونس دوديه Alphonse Daudet، دراسات استشرافية، العدد 25، شتاء 2021م .
- 19-علوات محمد ، الديناميكية العمرانية لمدينة البليدة، د ت .
- 20- عمارة علاوة ، الجزائر العاصمة و قبيلة الثعالبة تأسيس وتطور مدينة وسيطة"، د ت .
- 21- غرداوي نور الدين، أعراش وقبائل متيجة ودورها في المقاومة الوطنية في بداية الاحتلال الفرنسي، مجلة متيجة للدراسات الإنسانية، العدد 04، ديسمبر 2015م .
- 22- لقبال مراد ، الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالبليدة خلال العهد العثماني (942-1246هـ/1535-1830م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف عمر بن خروف، المدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية بوزريعة ، 2004-2005م .
- 23- المدني أحمد توفيق ، كتاب الجزائر تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وعناصر سكانها ومدنها ونظاماتها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية، طباعة ونشر المطبعة العربية، الجزائر، 1931.
- 24- الميلي مبارك بن محمد الهلالي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، طبع بدران وشركائه، بيروت، لبنان، 1963م ، ج02
- 25- ياقوت الحموي الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، المجلد الخامس، دار صادر بيروت، لبنان، 1977م.